ظاهرة التغليب في ثلاثيات مسند الإمام أحمد: دراسة بلاغية تحليلية

د. كفايت الله همداني

د. محمد زهير أحمد صديقي

ملخص البحث

بين أيدينا دراسة تفتش في ثنايا "الأحاديث الثلاثيات" بمسند الإمام أحمد عن ملمح بلاغي بالغ الدقة وهو "التغليب"؛ حيث تكمن قيمة هذا الفن في قدرته المذهلة على صهر المعاني المتعددة في قالب لفظي واحد يجمع بين روعة الإيجاز وجلالة التأثير. ينطلق البحث من تساؤل محوري يستنطق الأسرار الكامنة وراء عدول اللسان النبوي عن مقتضى الظاهر؛ ليُغلب أحد الطرفين على الآخر في روايت تمثل ذروة العلو الإسنادي، وكيف خدم هذا المنزع الأسلوبي المقاصد السياقية للخطاب. وعبر تتبعٍ رصين وفق المنهج الاستقرائي التحليلي لنماذج التغليب، تبرهن الدراسة على أن هذا الأسلوب لم يكن مجرد خيار لغوي عابر؛ لتسهيل النطق، بل كان ركيزة بيانية، وظيفية استهدفت تعزيز وحدة الخطاب وتكثيف دلالاته، بما ينسجم تمامًا مع مقام النبوة وما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم.

الكلمات الافتتاحية: التغليب، ثلاثيات مسند أحمد، العدول البلاغي، البلاغة النبوية، المنهج التحليلي

مقدمة البحث

يتربع البيان النبوي على عرش الفصاحة الإنسانية، متفردًا بكونه الوعاء الأسمى الذي انصهرت فيه عبقرية اللسان العربي وجمالياته الأسلوبية. ومن بين تجليات هذا البيان يبرز أسلوب التغليب بوصفه ظاهرة بلاغية تعكس قدرة اللغة على التكثيف والاتساع، عبر منح أحد القرينين حكم الآخر طلبًا للخفة أو التشريف أو الإيجاز. وتستمد هذه الدراسة قيمتها العلمية من تسليط الضوء على هذا الفن في الأحاديث الثلاثيات بمسند الإمام أحمد؛ وهي تلك المرويات التي حازت شرف علو الإسناد، مما يجعل البحث في نسيجها الأسلوبي كشفًا عن ملامح الإعجاز البياني في أوثق نصوص السنة النبوية وأقربها عهدًا بمشكاة النبوة.

يروم هذا البحث سبر أغوار ظاهرة التغليب في هذه المتون الشريفة، مستندًا إلى منهجٍ استقرائي تحليلي يزاوج بين التأصيل القاعدي وبين الاستنطاق الجمالي للنصوص، وقد انتظم عقد الدراسة في مبحثين رئيسين على النحو الآتي:

المبحث الأول: التغليب لغةً واصطلاحًا؛ ويُعنى بضبط المفهوم وتأصيله من خلال ثلاث ركائز: الأولى تقف على الدلالة الاشتقاقية للمادة في المعاجم، والثانية تستجلي حده عند أئمة البلاغة، وصولًا إلى الركيزة الثالثة التي تستعرض الأنماط البلاغية للعدول بالتغليب والعلل الكامنة وراء ترجيح لفظٍ على آخر.

المبحث الثاني: نماذج من التغليب في ثلاثيات مسند الإمام أحمد؛ حيث تم فيه استقصاء اثنا عشر حديثًا من غرر الثلاثيات، وإخضاعها لمبضع التحليل البلاغي؛ بغية الكشف عن أسرار التغليب في سياقاتها المقالية والمقامية، وبيان أثر ذلك في تعزيز الدلالة التشريعية والتربوية.

وإن الباحث ليرجو بهذا التمازج بين التنظير البلاغي والتطبيق الحديثي أن يقدم لبنةً نوعية تثري المكتبة العربية، وتفتح آفاقًا جديدة لتذوق أسرار النظم النبوي الشريف.

المبحث الأول: التغليب لغة واصطلاحا

التغليب المفهوم اللغوي:

نستفتح بالوقوف على الجذر الاشتقاقي لهذه المادة؛ فمادة: غ،ل،ب، في لسان العرب تدور في فلك الظهور والقهر والاستعلاء. وقد تجلى هذا المعنى في النظم القرآني الكريم بلفظ المصدر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[1]؛ حيث يشير الأزهري في تهذيب اللغة إلى أن الغَلَب بفتح العين يُعد من المصادر القياسية التي تأتي على زنة طَلَب.[2]

وعند سبر أغوار هذا الأصل في معجم مقاييس اللغة، نجد ابن فارس يضع يده على الخيط الرابط بين حروف المادة؛ إذ يرى أن (الغين واللام والباء) تشكل أصلًا صحيحًا واحدًا، ينبثق منه دلالات القوة والمنعة والشدة في القهر. ومن هذا المنطلق يُقال: "غلب الرجلُ صاحبه" إذا ظفر به، وقسره بقوته، وهو ما يفسر استخدام البلاغيين لهذا المصطلح؛ إذ إن اللفظ "الغالب" يفرض سطوته على اللفظ المغلوب في حيز الاستعمال.[3]

التغليب في الاصطلاح البلاغي

ينتظم مفهوم التغليب في العرف البلاغي تحت فكرة "العدول عن الأصل"؛ لتحقيق غرضٍ بياني؛ وهو في جوهره يتمثل في "إعطاء الشيء حكم غيره"، أو بعبارة أخرى: هو ترجيح كفة أحد القرينين على الآخر عند إطلاق اللفظ، بحيث يُجعل المختلفان في منزلة المتفقين في التسمية أو الحكم.[4]

ولا يقف هذا الفن عند حدودٍ ضيقة، بل هو أسلوبٌ فسيح الأرجاء، يتغلغل في مختلف فنون العربية؛ إذ يقرر السكاكي هذه السعة بقوله: "وباب التغليب بابٌ واسع يجري في كل فن"[5]. وقد عضّد هذا الرأي التفتازاني في شروحه على القزويني، مؤكدًا أن هذا النمط من التعبير يمنح الكلام مرونة واتساعًا في الدلالة.[6]

ويتحقق التغليب عبر صورٍ متنوعة يشدُّ بعضها بعضًا، وتتشكل ملامحها بناءً على طبيعة الرابطة بين المتغلب والمتغلب عليه في السياق، ومن أبرز تلك الصور:

1) تغليب المذكر على المؤنث: يتجلى هذا الضرب من التغليب في النظم القرآني حينما تُستدعى الصفات المذكرة؛ لتشمل الأنثى في سياقٍ يهدف إلى إبراز خصوصية المنزلة أو توكيد الرفعة والمكانة. ويبرز هذا المعنى بوضوح في وصف مريم –عليها السلام– بقوله عز وجل: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[7]؛ فمع أن مقتضى الظاهر يميل لجمع المؤنث، إلا أن إدراجها ضمن زمرة القانتين جاء إيذانًا ببلوغها شأوًا بعيدًا في التنسك والاجتهاد، واستحقاقها بفضل علمها وتبصرها أن تُلحق برتبة الرجال الذين سما ذكرهم في طريق العبودية، فأخذت حكمهم في الوصف والجزاء. وهذا المنزع الأسلوبي يتسق مع عادات العرب في إيثار المذكر على المؤنث طلبًا للإيجاز، وتوسيعًا لمدار العموم، مع ما يضفيه من قوةٍ دلالية تخدم المقاصد الكبرى للنص.

2) تغليب المذكر أو الأخف في الاستعمال: ينزع اللسان العربي في كثير من أساليبه إلى ترجيح اللفظ الأخف نطقًا أو الأكثر دورانًا على الألسنة، وهو منحىً يزاوج بين جمالية الصوت واختصار العبارة. ويتجلى هذا المنزع في آيات الذكر الحكيم، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[8]؛ حيث جُمع بين المؤنث (الشمس) والمذكر (القمر) في فعل بصيغة المذكر؛ والعلة في ذلك أن المذكر هو الأصل الأخف، ولأن طبيعة الفعل هنا تقتضي الجمع والوحدة بين الجرمين، وهو ما يمنع الفصل العطفي الذي قد يقتضيه التذكير والتأنيث استقلالًا.[9]

ولا يقتصر هذا الفن على الأفعال، بل يتعداه إلى الأسماء المثناة التي شاعت في لغة العرب لإفادة التعميم أو تيسير التعبير؛ إذ يُلحق أحد القرينين بصاحبه ويُطلق عليهما لفظٌ واحد. ومن شواهد ذلك ما أورده السكاكي والقزويني في إطلاق لفظ "الأبوان" ليشمل الأب والأم[10]، وقولهم "العمرين" للقبي الأمة أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما–، و"القمرين" للجرمين العظيمين الشمس والقمر[11]. كما يمتد هذا الاتساع؛ ليشمل الجهات، كإطلاق لفظ "الخافقين" على المشرق والمغرب كما بيّنه السكاكي[12]. والسر البلاغي الكامن وراء هذا التغليب يرجع إلى الرغبة في توحيد اللفظ وتجاوز ثقل التعدد، مع مراعاة ما يضفيه هذا الأسلوب من تلطفٍ في الخطاب وانسجامٍ في بناء الجملة.

3) تغليب المخاطب على الغائب: يعد تغليب الحضور (المخاطب) على الغيبة استراتيجية تهدف إلى تقوية أواصر التواصل ونقل الكلام من حيز الإخبار الساكن إلى فضاء المواجهة المباشرة. ويبرز هذا الفن في أرقى صوره عند قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَمَنْ تابَ مَعَكَ﴾[13]؛ حيث غلّب النص جانب أنت (المخاطب) على جانب من (الغائب)، فجاء إسناد الفعل بصيغة المفرد مع أن مقتضى

الظاهر يقتضي الجمع (فاستقيموا). والسر في هذا العدول يكمن في الفصل بحرف العطف، مما سمح بتركيز الأمر على المخاطب الأول عليه الصلاة والسلام؛ ليكون المتبوع هو الأصل في الاستقامة، ويتبعه من تاب معه حكمًا وتبعية .[14]

وتتجه الغاية البلاغية في هذا النوع من التغليب نحو استمالة السامع وجذب انتباهه؛ ليكون جزءًا حيًّا من السياق؛ كما في قوله عز وجل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[15]؛ فمع أن جوهر الحديث قد يمس غائبين اتصفوا بهذا الجهل، إلا أن العدول إلى خطاب الحاضرين مباشرةً يهدف إلى تقريعهم ووضعهم في مواجهة حقيقة حالهم، مما يضاعف من وطأة التأثير في نفوسهم.

ويتضح هذا المنزع أيضًا في قصة نبي الله شعيب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[16]؛ إذ نجد تغليبًا للمخاطب على الغائب؛ بغرض توجيه التوبيخ والتقريع بصبغةٍ فورية ومباشرة تليق بمقام الزجر، دون أن يخلَّ ذلك بالدقة الواقعية أو المقتضيات العقلية للخطاب.[17]

4) تغليب الكثير على القليل: يُستخدم لإظهار الشمولية أو إبراز المجموع على الفرد. مثال: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾"[18]، يتجلى أسلوبُ التغليب في ضم إبليس إلى زمرة الملائكة في الخطاب، رغم تباين أصله وخلقته عنهم؛ وفي هذا التعبير مَنزع بلاغي ونفسي دقيق. فإطلاقُ لفظِ الملائكةِ ليشملَه معهم يهدف إلى استحضار تلك المكانة السامية التي كان يتبوأها قبلَ السقوط، وفي ذلك تذكير موجع له بما آلَ إليه حالُه بعد العصيان. فالتغليب هنا لم يكن لمجردِ الإيجاز، بل لتعميق شعوره بالحسرة والندامة حين يرى نفسَه قد طُرد من حظيرة القدس ونُبذ من تلك الجماعة المكرمة التي كان يوما ما محسوبا عليها، مما يجعل وقعَ العقوبةِ النفسية أشد إيلاما من العقوبة البدنية".[19]

5) تغليب ذوي العقول على ضدهم: يظهر حين يُعطى الموصوف للعاقل[20]، رغم أنه يشمل غير العاقل، لإبراز تميز العقلاء والمتبصرين. مثال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ.. فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾"[21]، فاللفظ من خصص للعاقل؛ ليظهر تمييز الله للذكيّ المتبصر عن غيره. مثال آخر: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾"[22]. فالتغليب ليس مجرد تبديل لفظي، بل أسلوب بلاغي رفيع يتيح للمتكلم أو النص الإلهي توجيه المعنى بدقة أكبر، وإبراز المقصود بوضوح، وتحقيق أثر تربوي أو تحذيري أو مدح أو ذم. وهو يربط بين العموم والخصوص، بين الواقع والمخاطب، ويجعل المعنى أقوى وأكثر قابلية للإدراك والاستيعاب.

المبحث الثاني: نماذج من التغليب من ثلاثيات مسند الإمام أحمد

الحديث الأول:

نص الشاهد: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم".[23]

يبرز في هذا النص النبوي توظيفٌ دقيق لأسلوب التغليب؛ حيث نجد أن كاف الخطاب في قوله عليه الصلاة والسلام: عليكم، قد وردت بصيغة الجمع المذكر، مع أن جوهر الحكم الشرعي يشمل الأمة

بمجموعها؛ رجالًا ونساءً. وقد عَدل السياق عن إيراد ضمير الإناث اكتفاءً بتغليب ضمير المذكر على المؤنث؛ والسر البلاغي وراء هذا الصنيع يكمن في رعاية مبدأ الإيجاز الذي هو سمة جوامع الكلم، وجريًا على سنن البلاغة العربية التي تؤثر مخاطبة الجماعات المختلطة بصيغة التذكير؛ لكونها أخفَّ على اللسان وأقدر على استيعاب العموم بلفظٍ مقتضب.

الحديث الثاني:

نص الشاهد: "إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون الثالث".(24)

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التناجي بين اثنين إذا كان معهم ثالث منعًا لإحزانه. فقوله: ثلاثة، جاء بصيغة تذكير العدد بإثبات التاء، وهو خطاب للرجال، لكن الحكم يشمل النساء أيضًا؛ أي: ولو كن ثلاث نساء. فغُلب المذكر في العدد والخطاب. والسر البلاغي: العموم التشريعي، فالأصل في خطاب التكليف أن يَرِد بلفظ الذكور ويشمل الإناث، تقليلًا للاشتراك اللفظي وتحقيقًا للشمول.

الحديث الثالث:

نص الشاهد: "البيعان بالخيار ما لم يتفرقا".(25)

البيعان بصيغة التثنية، والأصل في مقتضى الظاهر أن يسمى كل واحد باسمه البائع والمشتري، لكن النبي –عليه الصلاة والسلام– عدل عن ذلك فغلب لفظ البيع، وجعل الطرفين بيعان من باب التغليب. والسر البلاغي هنا هو إبراز الوحدة في العقد، وأن كلًا منهما في هذه اللحظة مشترك في عملية البيع، فالبائع يبيع السلعة والمشتري يبيع الثمن باعتباره بائعًا للمال، فجمعهما في لفظ واحد تغليبًا لإظهار اشتراكهما في الحق الخيار، واشتراكهما في العلقة العقدية حتى ينفض المجلس.

الحديث الرابع:

نص الشاهد: "رأى (النبي صلى الله عليه وسلم) الصبيانَ والنساءَ مُقبلين".(26)

اشتمل السياقُ على طائفتين: الصبيان، وهم ذكور، والنساء، وهنَّ إناث، ومقتضى الظاهر أن يُؤتى لكل طائفة بما يناسبها، أو يُجمع بينهما بلفظٍ يشملهما. إلا أنَّ التعبير جرى بقوله: مقبلين، بصيغة جمع المذكر السالم. والسر البلاغي هنا هو التغليب؛ وهو أسلوبٌ عربيٌّ عريق يُجري الحكمَ على الطائفتين بلفظِ إحداهما؛ وهو المذكر هنا، طلبًا للإيجازِ من جهة، ورعايةً لجانب الأصل في اللغة من جهة أخرى. والسرُّ في استخدامه في هذا الموطن هو صهرُ الفئات في وحدةٍ واحدة؛ فالتغليب جَعَلَ من هؤلاء المقبلين كتلةً بشريةً واحدةً متجانسة في الهيئةِ والحركة؛ لتتهيأ النفسُ لاستقبالِ الحكمِ العام الذي سيأتي لاحقًا؛ أنتم أحب الناس إليّ. فكأنَّ براعة التغليب هنا مهّدت لجمعِ القلوبِ تحت رايةِ محبةٍ واحدة لا تتجزأ بتجزؤ الأجناس، وهو من لطيفِ صَنعةِ الإيجاز في مروياتِ السنة.

الحديث الخامس:

نص الشاهد: "فقال: إنا قد اصطنعنا خاتمًا ونقشنا فيه نقشًا، فلا ينقش أحد عليه".[27]

في قوله –عليه الصلاة والسلام– "إنا قد اصطنعنا"، عدل عن ضمير المفرد: أنا، إلى ضمير الجمع: نا. وهذا خروج عن مقتضى الظاهر من باب تغليب نون العظمة أو نون الجماعة. والسر الأدبي هنا أن الخاتم لم يكن مجرد زينة شخصية، بل كان ختم الدولة ورمز الأمة في مكاتباتها. فغلب النبي –عليه الصلاة والسلام– صفة العموم والسيادة على صفة الخصوصية؛ ليعلمهم أن هذا النقش صار حِمىً عامًا لا يجوز التطاول عليه بمشابهته، فاستخدام ضمير الجمع أضفى على الفعل هيبة ومكانة تتجاوز ذات الفاعل إلى عظمة الممثل للأمة.

الحديث السادس:

نص الشاهد: "ألم آتكم ضلالًا، فهداكم الله عز وجل بي".[28]

ذكر النبي –عليه الصلاة والسلام– للأنصار بفضله عليهم بعد الله في الهداية، وفي: قوله: آتكم، خطاب للأنصار الحاضرين يوم حنين، ومعلوم أن الهداية شملت من غاب منهم ومن لحق بهم. فغلّب الحاضرين في الخطاب؛ ليقوموا مقام الكل. والسر البلاغي هو استحضار العاطفة وتحريك القلوب بمواجهة الحاضرين بالمنن التي طالتهم، مما يزيد من وقع التذكير في النفس.

الحديث السابع:

نص الشاهد: "من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه".[29]

وفيه جزاء من يشتاق إلى لقاء الله تعالى. وقوله عليه الصلاة والسلام: من أحب؛ من شرطية تشمل المذكر والمؤنث، والضمير المستتر في أحب يعود على المذكر تغليبًا. ففيه تغليب المذكر في الضمير المستتر، وتغليب الجنس، والسر البلاغي: الإطلاق والشمول؛ فالمقام مقام وعد بالثواب، والتغليب هنا يهدف إلى جعل القاعدة مطردة في كل مؤمن ومؤمنة بأوجز لفظ.

الحديث الثامن:

نص الشاهد: "وكونوا عباد الله إخوانًا".[30]

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتحلي بالأخوة وترك التحاسد والتباغض. وقوله: عباد الله، جمع عبد، وهو مذكر، وإخوانًا جمع أخ، وهو مذكر. الخطاب هنا موجه للمسلمين والمسلمات كافة، فغُلّب المذكر في الجمع. والسر البلاغي: التأكيد على وحدة الأصل البشري في العبودية لله، واستخدام صيغة المذكر لجمع الشتات تحت مسمى واحد يتسم بالخفة والقوة في الخطاب.

الحديث التاسع:

نص الشاهد: "لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها".[31]

وفيه تغليب غير ذوي العقول على ذوي العقول، أن النبي صلى الله عليه وسلم بين عظمة نعيم الجنة مقارنة بمتاع الدنيا، وقوله صلى الله عليه وسلم: وما فيها، استخدم اسم الموصول ما، الذي يُستخدم غالبًا لغير العاقل، مع أن الدنيا فيها البشر والملائكة عقلاء. فغلّب ما لغير العاقل؛ لتشمل كل شيء في الدنيا. والسر البلاغي فيه تحقير متاع الدنيا بجميع أصنافه؛ جمادًا وعاقلًا، أمام عظمة الجنة، فجاءت ما لتفيد الشمول والاستغراق مع الإشارة إلى تفاهة قدر الدنيا.

الحديث العاشر:

نص الشاهد: "شهد النبي صلى الله عليه وسلم في المتلاعنين".[32]

وفي الحديث الإشارة إلى قضية اللعان التي وقعت بين زوج وزوجته، وفيه تغليب المذكر على غيره. وقوله صلى الله عليه وسلم: المتلاعنين، جاء بصيغة تثنية المذكر، والواقع أن اللعان يقع بين رجل وامرأة. فغُلِّب المذكر على المؤنث وهو أصل في لغة العرب. والسر البلاغي هو رعاية جانب الخفة في الاستعمال، وتكريم اللفظ بتقديم المذكر، والإشارة إلى أن الحكم يشملهما معًا كطرفي خصومة واحدة.

الحديث الحادي عشر:

نص الشاهد: "ارموا يا بني إسماعيل".[33]

شجع النبي –عليه الصلاة والسلام– لبعض أصحابه على الرماية، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: بني إسماعيل، تغليب المتبوع على التابع وتغليب النسب، إذ هو يشمل الذكور والإناث من نسله، لكنه خص البنين أي: الذكور، بالذكر تغليبًا؛ لأنهم هم المباشرون للرماية غالبًا ولأن النسب يُسند للأب. والسر البلاغي هو إثارة الحماسة بذكر الأصل والجد المشترك، وتغليب صفة الذكورة؛ لأن المقام مقام حرب ورمي، وهي صفات رجولية في المقام الأول.

الحديث الثاني عشر:

نص الشاهد: "وقد صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم القبلتين".[34]

وصف أحد الصحابة بأنه عاصر تحويل القبلة وصلى للجهتين، وقوله: القبلتين، تثنية قبلة، والمقصود بهما بيت المقدس والكعبة. غلّب هنا وصف القبلة عليهما معًا تغليبًا للوصف الذي استقر عليه الأمر الكعبة، على الوصف السابق بيت المقدس. والسر البلاغي فيه هو التشريف والمساواة في اللفظ لإظهار فضل من أدرك الصلاة في الجهتين، وتوحيد المفهوم العبادي للتوجه إلى الله.

نتائج البحث

بعد سياحة تحليلية مستفيضة في رحاب الثلاثيات من مسند الإمام أحمد، واستنطاق أسرار التغليب في متونها الشريفة، انتهى هذا البحث إلى جملة من النتائج التي تُبلور عبقرية البيان النبوي، وتفتح آفاقًا جديدة للمهتمين بالدرس البلاغي الحديثي، وهي على النحو الآتي:

1 – أثبتت الدراسة أن الثلاثيات كما هي قمةٌ في علو الإسناد، فهي ذروةٌ في سمو الأسلوب؛ حيث تآزرت قوة السند مع مهارة التغليب البيانية لترسم صورةً تعبيريةً معجزة تجمع بين خفة اللفظ واتساع المعنى.

2 – كشفت الدراسة أن التغليب في الحديث الشريف ليس مجرد رخصة لغوية أو تيسير صوتي، بل هو استراتيجية تواصلية تهدف إلى تكثيف الدلالة وإيجاز الخطاب، بما يتناسب مع جوامع الكلم التي أوتيها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

3 – تبين من خلال تحليل الأحاديث أن التغليب النبوي يؤدي وظائف دقيقة؛ تتراوح بين التشريف بإلحاق الأدنى بالأعلى، وبين الشمول بجمع الأطراف تحت لفظ واحد، مما جعل هذا الفن أداةً طيعةً في يد البيان النبوي لضبط الأحكام والآداب.

4 – رصد البحث أن أكثر صور التغليب دورانًا في الثلاثيات هي تلك التي تغلب المذكر على المؤنث؛ ليس من باب الترجيح الجنسي، بل رغبةً في تعميم الخطاب التشريعي، وجريًا على سَنن العرب في استيعاب الجماعة بلفظ المذكر طلبًا للخفة والجزالة.

5 – أكدت الدراسة التحليلية أن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر عبر بوابة التغليب يمثل أصلًا أصيلًا من أصول البلاغة النبوية، وأن القواعد التنظيرية التي وضعها أساطين البلاغة كالسكاكي والقزويني تجد مصداقيتها الأسمى وتطبيقاتها الأكثر حيوية في نصوص الوحيين.

التوصيات

بناءً على ما أسفرت عنه هذه الدراسة من نتائج، يضع الباحث بين يدي المختصين جملةً من التوصيات والمقترحات التي من شأنها إثراء البحث البلاغي والحديثي:

1 – يدعو الباحث طلاب الدراسات العليا والباحثين إلى إيلاء مسند الإمام أحمد عنايةً بلاغية خاصة؛ فهو مَعينٌ لغوي لم تُستخرج لآلئه بعد، وبخاصة في فنون الإيجاز، والكناية، وبلاغة الصورة النبوية، بما يتجاوز النظرة السطحية للمتون إلى عمق التحليل الأسلوبي.

2 – يوصي البحث بضرورة دمج الدرس البلاغي بـ: الدرس الحديثي في الكليات الشرعية والمعاهد المتخصصة؛ ليتجاوز الطالب مرحلة نقد الأسانيد الصرفة إلى رحاب تذوق المتون، إيمانًا بأن جودة السند هي المفتاح لفهم عبقرية النظم في كلام النبوة.

3 – يقترح الباحث إجراء دراسات بلاغية موازنة بين ظواهر العدول كالتغليب في الثلاثيات وبين نظائرها في الكتب الستة؛ للوقوف على الخصائص التعبيرية التي قد تنفرد بها الروايات ذات الإسناد العالي.

4 – يقترح الباحث توظيف تقنيات الأسلوبية الإحصائية واللسانيات الحاسوبية في رصد ظاهرة التغليب في المسند كاملًا؛ للخروج بخريطة بيانية شاملة توضح أنماط التعبير النبوي وتطورها الأسلوبي.

إحياء فنون العدول: يوصي الباحث بإعداد معجم بلاغي متخصص يرصد فنون العدول عن مقتضى الظاهر في السنة المطهرة؛ ليكون مرجعًا للباحثين في استنباط الأحكام والمقاصد من خلال الخصائص اللسانية للنص.

الهوامش

[1] الروم، 3/ 30

[2] الأزهري، حمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (370هـ). تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 2001م، 8/ 133.

[3] ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء، أبو الحسين (395هـ). معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ/1979م. 4/ 388.

[4] الرفاعي، أحمد مطلوب أحمد الصيادي، أساليب بلاغية، الفصاحة–البلاغة–المعاني، الكويت، وكالة المطبوعات، الطبعة الأولى، 1980، ص/ 266

[5] السكاكي، يوسف بن أبي بكر محمد، أبو يعقوب السكاكي، (626هـ)، مفتاح العلوم، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، التحقيق: نعيم زرزور، الطبعة الثانية، 1983م/1403هـ، ص/ 242.

[6] التفتازاني، سعد الدين (791هـ). شرح تلخيص المفتاح. قم، إيران: منشورات إسماعيليان، الطبعة الثانية، 1427هـ، ص/ 138.

[7] التحريم، 66/ 12.

[8] القيامة، 75/ 9.

[9] الرفاعي، أساليب بلاغية، الفصاحة–البلاغة–المعاني، ص/ 266–267.

[10] القزويني تلخيص المفتاح، ص/ 38.

[11] التفتازاني شرح تلخيص المفتاح، ص/ 138.

[12] السكاكي، مفتاح العلوم، ص/ 243.

[13] هود، 11/ 112.

[14] الرفاعي، أساليب بلاغية، الفصاحة–البلاغة–المعاني، ص/ 267.

[15] ()النمل، 27/ 55.

[16] ()الأعراف، 7/ 88.

[17] ()الرامفوري، محمد فضل حق، أبو الأفضال. شموس البراعة. كراتشي، باكستان: مكتبة المدينة، 1428هـ/2007م، ص: 141.

[18] ()الحجر، 15/ 30-31.

[19] ()هذا ما أشار إليه السيد جعفر في أساليب المعاني، ص/ 418.

[20] ()السبكي، بهاء الدين، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، (773هـ). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، بيروت، لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1423هـ/2003م، 1/ 329.

[21] ()النور، 24/ 45.

[22] ()الشورى، 42/ 11.

[23] ()أحمد بن حنبل، أبو عبد الله الشيباني (241هـ). المسند. مصر: مؤسسة القرطبة، 2/ 9، الرقم/ 4563، وكذلك في 3/ 99، الرقم/ 11966، و3/ 307، الرقم: 14332، ومحب الدين إسماعيل بن عمر المقدسي، ثلاثيات مسند الإمام أحمد بن حنبل (ومعها زيادات ضياء الدين المقدسي)، ت: محمد بن ناصر العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م، ص/ 34، الرقم/ 4، وفي ص/ 51، الرقم/ 54.

[24] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 2/ 9، الرقم/ 4564، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 34، الرقم/ 5.

[25] ()أخرجه أحمد في مسنده، 2/ 9، الرقم/ 4566، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 35، الرقم/ 7.

[26] ()أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 176، الرقم/ 12820، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 48، الرقم/ 46.

[27] ()أخرجه أحمد في مسنده، 3/ 101، الرقم/ 12008، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 60، الرقم/ 84.

[28] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 3/ 105، الرقم/ 12040، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 71، الرقم/ 108.

[29] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 3/ 107، الرقم/ 12066، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 85-86، الرقم/ 139.

[30] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 3/ 110، الرقم/ 12094، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 92، الرقم/ 152.

[31] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 5/ 330، الرقم/ 22849، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 114، الرقم/ 211.

[32] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 5/ 453، الرقم/ 22855، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 116، الرقم/ 216.

[33] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 4/ 50، الرقم/ 16576، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 152، الرقم/ 293.

[34] ()أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 4/ 233، الرقم/ 18078، والمقدسي في الثلاثيات، ص/ 157، الرقم/ 307.